الخطاب الديني ودوره في خلق فعاليات التلقي لدى السامع
خطبة الوداع للرسول - صلى الله عليه و سلّم-
أنموذجا

Religious discourse and its role in creating the activities of receiving the listener The farewell sermon of the Messenger may God bless him and grant him peace model

د. وردة مسيلي [1] / المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف-ميلة/ (الجزائر)، mecili38@gmail.com

د. عبد الباقي مهناوي / المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف-ميلة / (الجزائر)، Abdelbakimhennaoui@gmail.com

تاريخ الاستلام:01 / 12/ 2022 تاريخ القبول: 12/19 / 2022 تاريخ النشر: 12/31 / 2022

ملخص:

تعتبر القصدية من أهمّ المرتكزات التي يتوكّأ عليها الخطاب الديني بوصفه خطابا ذا صبغة قداسية تحمل ملامح تخاطبية يقرّرها الأصوليون في منهجهم التخاطبي.

فالنظرة الشمولية للنص الديني مطلب لا بدّ من تحقّقه في إطار فهم شامل وواع للخطاب الديني سواء كان القرآن الكريم أو الحديث الشريف.

انطلاقا مما تقدّم تحاول هذه المداخلة تسليط الضوء على نصّ الخطبة النبويّة كنموذج لخلق فعاليات التلقي لدى الجمهور.

الكلمات المفتاحية:

القصدية، الخطاب الديني، النظرة الشمولية، المنهج التخاطبي، فعاليات التلقي.

Abstract:

Intentionality is considered one of the most important pillars on which religious discourse relies, as it is a discourse of a sacred nature that bears discursive features that fundamentalists decide in their discursive approach.

A comprehensive view of the religious text is a requirement that must be achieved within the framework of a comprehensive and conscious understanding of religious discourse, whether it is the Holy Qur'an or the noble hadith.

Based on the foregoing, this intervention attempts to shed light on the text of the Prophet's sermon as a model for creating audience activities.

Keywords: *Intentionalism, religious discourse, holistic view, discursive method, reception activities.*

[1] **د. وردة مسيلي** *mecili38@gmail.com*

مقدمة:

إنّ الحديث عن نص الخطبة النبوية ومقوّماته يجرّنا إلى طرح جملة من التساؤلات أهمّها:

كيف قرأ جمهور المتلقّين خطبة الرسول الكريم – صلى الله عليه و سلّم – يوم ألقاها فهم و كيف تفاعلوا معها في حينها ؟

ما هي الأسس التي بنى عليها الرسول الكريم – صلى الله عليه و سلّم- محاور خطبته الغرّاء " الأفكار التي حوتها الخطبة"

ما هو المنهج والأسلوب الذي اتّبعه الرسول الكريم " صلى الله عليه و سلّم" في عرض أفكاره وهو يخطب في الناس؟

كيف تدخل الخطبة كنصّ أدبي أو كأثر أدبي راق في استمراريّة زمنيّة بغضّ النظر عن ظروف نشأتها، لأنّ العبرة هنا تكون بالمعنى الذي هو عملية حوارية يُمنح النصّ خلالها مدلولا جديدا يتناسب مع معايير و قيم الجماعة التي تلقّتها.

فخطبة الوداع واحدة من أهمّ خطب الرسول - صلى الله عليه و سلّم- في التاريخ الإسلامي لم ترد كاملة في موضع واحد من مصادر الحديث يقول ابن كثير في " البداية و النهاية" (إنّ النقلة اختلفوا في حجّة الوداع اختلافا كثيرا بحسب ما وصل إلى كلّ منهم من العلم وتفاوتوا في ذلك تفاوتا كثيرا لا سيما من بعد الصحابة رضي الله عنهم)[1]

مما يحول دون ترتيب الخطبة التي تعددت موضوعاتها و اختلفت من حيث المضمون و المحتوى إلا أنه تصبّ كلّها في معين واحد هو : التشريع الإسلامي وتنظيم العلاقات بين الأفراد في سبيل بناء مجتمع إسلامي، راسخ القواعد، ثابت الأركان، متين البنيان، لا تؤثّر فيه التيارات، ولا تزعزعه الفتن و المحن، يتسلّح فيه الناس بدستور لا نظير له، يحقّق العدل و الخير، ويثبّت الحقّ و يعضده؛ إنّه دستور أساسه كتاب الله تعالى و سنّة نبيّه عليه الصلاة و السلام.

تستوجب منا الدراسة والتطبيق على هذا النصّ الديني المقدّس أن نعترف بأنه خطاب يحتوي حجّته في ذاته إذ الحديث عن حجّة الوداع و الخطاب الحجاجي حديث عن الأمر و ذاته و ما يكتنفه من قصديّة ترتكز على مختلف الأدلة و الحجج، و الأسلوب الراقي مع الفصاحة والتميّز في الأداء والإلقاء بالصوت والحركة .

ولا بدّ أن نسجّل هنا بأنّ الرسول (صلى الله عليه و سلم) في هذه الخطبة قد رسم غايات و مقاصد قصوى تفصيلية حيث وضع الخطوط العريضة للاتصال بالناس في إطار أهداف تستلهم جوهرها من المنهج القرآني الكريم؛ إذ يعتبر تحديد الأهداف من مقوّمات الإقناع بالخطاب لذا كان ارتباط الأهداف بالرسالة الموجّهة أمرا ضروريا لأنّ موضوع الخطاب لا بدّ أن يتناسب طرديا مع الهدف الذي يتّجه إليه الاتصال و إلاّ غدا شكل الرسالة أو الخطاب غامضا و مشوّشا يستحيل معه تحقيق الأهداف.

[1] - ابن كثير، البداية و النهاية، ت عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر الجيزة،ط1 / 1997،ج7 ص: 404

ومع هذا فإنّ بعض الدراسات تؤكّد أنّه ليس بالضرورة إعلان الأهداف كلّها بتفصيلاتها والاكتفاء في التصريح بالأهداف العامّة المجملة و ذلك مراعاة لمقتضى حال المتلقي فهو عندما يدرك عزم المرسل على إقناعه بالكشف عن أهدافه كلّها و يشعر بأنه يملي عليه شيئا ما فيرفض الرسالة، و لهذا كانت الدعوة إلى ضرورة الاهتمام بالأهداف ومرونتها قصد استيعاب المتغيّرات التي تطرأ على العملية الإبلاغية التي تحتوي أهداف التربية والتعليم و التنشئة الدينية و الفكرية و الثقافية التي ترتقي بالمجتمع نحو :

ترسيخ عقيدة الإيمان، تحقيق السيادة لشرع الله، الوصول إلى مجتمع الطهر والنقاء.

ولعلّ هذا ما كان الرسول الكريم ينشده من خلال خطبته القائمة أساسا على ركيزة الفكرة الثابتة والمنهاج القويم من خلال الأفكار والمعاني التي تطرحها في مضمونها الذي يعتمد على تقرير الحقّ بالحجّة والبرهان.

أمّا صوغ الخطاب فيتمثّل في اختيار الرّموز ذات الدلالة الفعّالة في الإقناع بالرسالة التي يشترك فيها كلّ من المرسل والمتلقّي وقد تكون غالبا لسانية أو ما فوق المقطعيّة و تشترك فيها الرسوم البيانية والكاريكاتورية، والحركيّة والإشارية و غيرها... وعليه يقوم وضوح الرسالة و تبتعد عن الغموض والإغراق في الرّمزية التي تحمّلها أكثر من معنى و تلج بها مغاليق التأويل فيظهر ما يعرف بالتشويش الدلالي الذي يعتبر من معوّقات الإقناع .

أمّا الخطاب النبوي من خلال حجّة الوداع فقد اتّسم بالوضوح المولج إلى إقناع البعيد قبل القريب، و قد وعى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وضوح الرسالة و فعاليتها في عملية الإقناع حيث جاء في مقدّمة صحيح الإمام مسلم عن ابن مسعود (رض) قال: " ما أنت بمحدّث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"[2]

الشرح والتوضيح الوافي: فالخطاب يحتاج إلى تركيز الشرح وتقوية التوضيح لغرض الإقناع بالقول الثابت لذا كان من أهمّ خصائص أساليب الخطاب التواصلي النّبوي التكرار لتثبيت الفكرة وترسيخ المعنى وقد سبقت الإشارة إلى أنّ خطبة الوداع كان لها أكثر من رواية

العرض المناسب: حيث تتنوّع أساليب العرض بحسب طبيعة الرسالة وطبيعة الأداة المساعدة لنقلها وتأسيسا على ذلك يستلزم من المرسل اختيار كمّ المعلومات ونوعها وترتيبها مراعيا ما يأتي:

التسلّح بالدّليل والبرهان والحجج القويّة الدّامغة التي تختلف فيها مصادر الاستشهاد باختلاف الجمهور المستهدف ففي خطبة الصفا مثلا كان الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يستهدف جمهورا لا يقيم للوحي وزنا ولذلك لم يستشهد بالآيات الكريمة وإنّما أقام عليهم الحجّة بما يلائم منطقهم وما تسلّم به عقليتهم من أنّ الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) هو الصادق الأمين والحكم، العدل وهذا دليل عقلي.

أما في خطبة الوداع فقد خاطب الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) جمهور المتلقّين وهم جماعة المسلمين وساق لهم الأدلّة والحجج والبراهين المعزّزة للمواقف من الكتاب أي الوحي والقرآن الذي يعدّ الاستشهاد به من قبيل الاستدلال القطعي المفيد لليقين القاطع للظنّ.

فالترتيب في الخطبة ضمّ تسلسل أجزائها وترابط فقراتها ووحداتها حيث توفّرت على:

[2] - الإمام مسلم، صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط 1 ،1412هـ 11 م ج1، ص:11

1-الاستهلال أو المقدّمة:

وهو بدء الكلام، وبه تفتتح السبيل لما يتلو[3] وقد افتتح الرسول الكريم خطبته بحمد الله والثناء عليه و استغفاره و التوبة إليه و الاستعادة من شرور النفس و سيئات العمل و نقائصه مقترنة بالشهادتين و توصية المسلمين بعبادة الله و طاعته، و هو أمر لم تألفه العرب، فأصبح نهجا واضحا و مسلكا متّبعا، يسير عليه المسلمون في خطابتهم. حيث رُوي عنه (صلى الله عليه وسلّم): كلّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع.

أما عبارة " أمّا بعد" فهي من الأساليب التي ألفها العرب و أصبحت ركنا أساسا من أركان الخطابة عندهم، وتعني: بعد دعائي لك، و تقدير الكلام : أما بعد حمد الله فكذا و كذا...

وينتقل بموجبها إلى الغرض المقصود لذلك سُمّيت بفصل الخطاب لفصلها الكلام التالي عن المتقدّم.[4]

وعنها يقول صاحب خزانة الأدب: " أمّا بعد: مقول القول، فهي كلمة يبتدئ بها كثير من الخطباء والكتّاب كلامهم، كأنّهم يستدعون بها الإصغاء لما يقولونه[5] "

ثمّ أردفها بقوله (صلى الله عليه و سلم): " أيها الناس، اسمعوا مني أبيّن لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا" و هو ضرب من التنبيه أتى بصيغتي النداء و الأمر الغرض منه استمالة القلوب و العقول إلى أهميّة ما سيأتي في العرض.

2-العرض و الدّليل:

وفيه يتمّ تقديم القضايا المرجو طرحها ثمّ إثباتها بالحجج المثبتة حيث ينبغي البدء بالعلل القويّة و إتباعها بالأدلّة الضعيفة[6] ، فقد خطب الرسول ليُعلم الناس بحرمة يوم النحر، وفضله عند الله و حرمة مكّة على سائر البلاد، و يأمرهم بالسّمع و الطّاعة لمن يؤمّهم بكتاب الله، ثمّ ليأخذوا مناسكهم عنه (صلى الله عليه وسلم) أسمع الناس حتى سمعها أهل منى في منازلهم. وقال: (لعلي لا أحجّ بعد عامي هذا . وأمر بالتبليغ عنه و قد فتح الله له و قد رامت الخطبة تقرير قواعد الإسلام، و هدم عادات الشرك و الجاهلية فقرّر فيها (صلى الله عليه وسلم) تحريم المحرّمات وهي: الدماء، و الأموال، والأعراض، و وضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه، و أمر بإرجاع الأمانات إلى أهلها و أصحابها، و وضع فيها ربا الجاهلية كلّه و محقه. كما أوصى الرجال بالنساء خيرا و عدّد ما لهنّ و ما عليهنّ، كما أوصى الأمّة بالاعتصام بكتاب الله و الاحتكام إليه ودعا إلى التآخي مع التزام تقوى الله، و

---

[3] - أرسطو، الخطابة الترجمة العربية القديمة ، د.ت ،تحقيق و تعليق عبد الرحمان بدوي مكتبة النهضة المصرية 1959، ص: 230 .

[4] - عباس ارحيلة ، مقدّمة الكتاب في التراث الإسلامي، وهاجس الابداع ، المطبعة و الوراقة الوطنية ، مراكش ، ط1 /2003 ، ص : 99.

[5] - البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب ،ت:عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط4 / 1997 ،ج10 ، ص: 370.

[6] - رولان بارت، البلاغة القديمة ، ترجمة عمر أوكان ، إفريقيا الشرق 1994 ص:147.

أخيرا استنطق الناس جميعا بماذا يقولون و بماذا يشهدون فقالوا: نشهد أنّك قد بلّغت، و أدّيت، و نصحت، فرفع إصبعه إلى السماء و استشهد الله عليهم ثلاث مرّات ثمّ أمرهم أن يُبلّغ شاهدهم غائبهم.

3-الخاتمة:

وفيها يُشعر الخطيب جمهور المتلقين بأنّ الخطبة قد انتهت وقد أنهى الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) خطبته هذه بالسلام بقوله: " و السلام عليكم و رحمة الله" و هو أمر لم يكن معهودا عند العرب، وهي شعار المسلمين و تحية الملائكة و تحيّة أهل الجنّة.

ولا يخفى ما في العبارة من معاني الراحة النفسية و الشعور بالاطمئنان و الخلود إلى الأمان حيث تتفجّر ينابيع الحبّ في القلوب، و تتوثّق عرى العلاقات الطيّبة، و تحكمُ وشائج التقارب و التصافي بين الأفراد و الجماعات

ويمكننا أن نعتبر عبارة " ألا هل بلّغت؟ اللهمّ اشهد " إثر الانتهاء من كلّ فكرة من الأفكار المطروحة خاتمة لها، وهو إشهاد للمخاطبين على أنفسهم.

الابتعاد عن المواجهة بالمجادلة: حيث إنّ المتلقّي ينفر من الخطاب الذي يتعارض و آراءه ويناقض أفكاره، و غالبا ما تكون المجادلة المنطقية مخاصمة و مشاحنة يضعف معها الإقناع. وقد أتبع الخطاب الديني الحكمة بالحسن في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾[7]

فقد اكتسب مفهوم المجادلة في الفكر الإسلامي بعدا أخلاقيا يبتعد عن مجادلة المناطقة ذلك أنّ من الأحرى و الأنسب في عملية الإقناع الولوج بالرفق واللين سيما إذا كان الهدف من الخطاب هو دعوة المتلقين إلى الدخول في دين الله.

الوسيلة المناسبة: وسائل الخطاب النبوي مختارة بحيث تساعد في بلوغ المقاصد النبيلة و الغايات السامية التي تتّسم بقوّة الفاعلية في عملية الإقناع؛ و مهما كانت وسيلته (صلى الله عليه وسلم) بسيطة في خطبة الوداع إلا أنّها بلغت غايتها حيث اعتلى (صلى الله عليه وسلم) ظهر ناقته القصواء، وكان له مناد يردّد ما يقوله و كأنّه مكبّر الصوت، ولذلك عدّت خطبة الوداع من قبيل الاتصال شبه الجماهيري لأنّ الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) كان يخاطب الأجيال من خلال أهل الموقف في عرفات فأشهدهم على اكتمال رسالة الإسلام:﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾[8]

والمتتبّع لخطب الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يجده يدرك قيمة الوسائل التخاطبية في عملية الإقناع فهو يؤثر في الاتّصال الجماهيري شكله الشخصي لما له من قيمة تأثيرية مباشرة و قويّة، وهذا ما أثبتته الدراسات الحديثة حيث يعود " التفاوت في المقدرة الإقناعية بين أشكال الاتصال إلى التفاوت في طبائعها وخصائصها

[7] - النحل / 125.

[8] - المائدة / 3.

المتباينة، فالاتصال الشخصي أكثر تأثيرا من الاتصال الصناعيّ بالراديو، والراديو أكثر تأثيرا من المواد المطبوعة، والتلفزيون يقف في منطقة الوسط بين الاتصال الشخصي والراديو "[9].

4-مراعاة مقتضى حال المتلقين:

يُصنّف المتلقي كركن أساس ثان ضمن ما يعرف بالبعد الإنساني في العملية الاتصالية، و هو المتأثر بعملية الإقناع،و قد يذهب ضحيّة التلاعب بالألفاظ ذات الدلالات المشوّشة عندما تكون الرسالة غير نزيهة بينما يستفيد من الموقف الكلامي في حال الرسالة شريفة المقاصد، و يختلف من حيث العدد فيكون فردا أو جمهورا يخضع لعملية التلقي التي تتطلّب استجابة ما تتحكّم فيها مجموعة من الدوافع الفيسيولوجية، و الاجتماعية، و النفسية السيكولوجية و البيئية و التاريخية و هذا ما يسوقنا إلى القول بعدم حتمية الاستجابة عند الإنسان حال اشتراكه في موقف خطابيّ [10].

إذ تمثّل الجوانب السيكولوجية أثناء صوغ الرسالة أو استقبالها زاوية قائمة بذاتها قادرة على توجيه سلوك المتلقين نحو الاستجابة الصحيّة ومساهمة بذلك في تعديل قناعاتهم وفق الإطار المرغوب فيه.

وقد استلهم الخطاب النبوي كلّ هذه المرتكزات المنهجية في إطار رسم خطّة محكمة تستهدف الوقت والجمهور المتلقي والمكان والزمان، و محتوى الرسالة، و شكلها، و أسلوب صوغها. لافتا الانتباه إلى تقنية تبادل الأدوار بين المتلقي و مصدر الرسالة بحيث يمكّنه ذلك من معرفة و الإحاطة بآليات التأثّر والتأثير في إطار الالتزام بنواميس الكون الشرعيّة التي تحقّق متّحدة الأهداف الاستراتيجية المسطّرة بإحكام و المرتبطة بمقاصد المجتمع الإسلامي و غاياته السامية و على رأسها رضى الله سبحانه و تعالى، وأداء الأمانة و الوفاء بواجب البلاغ المبين؛ و قد اشتملت نهاية كلّ مقطع من فقرات الخطبة الغرّاء بتحقيق هذا المبدأ قولا :" ألا هل بلّغت " وفعلا في سلوكه - صلى الله عليه و سلّم – الخالدة آثاره في المجتمع الإسلامي الحقّ.

تستوقفنا ههنا خطبة الوداع لنكشف عن كيفية تدخلها- كأثر أدبي راق، و خالد-في استمراريّة زمنيّة بغضّ النظر عن ظروف نشأتها، لأنّ العبرة هنا تكون بالمعنى الذي هو عملية حوارية يُمنح النصّ خلالها مدلولا جديدا يتناسب مع معايير وقيم الجماعة التي تلقّتها، والسؤال الذي يلحّ في الطرح هنا هو الآتي : ما موقع الخطاب الديني – خطبة الوداع – من نظرية التلقي أو نظرية القراءة؟

وللإجابة على هذا التساؤل نحاول أن نلقي نظرة سريعة عليها "فنظريّة التلقيRECEPTION THEORY صدى لتطوّرات اجتماعية و فكرية و أدبية في ألمانيا الغربية خلال الستينيات المتأخرة، تهتمّ هذه النظريّة بالقارئ، و بما يثيره في النصّ بغضّ النظر عن النصّ و شخصيّة المؤلّف،بل تركّز تركيزا كليا على كلّ ما يثير القارئ و الدور الذي يلعبه في إتمام النصّ الأدبي، و قد تبنّى هذه النظريّة الحداثية العالم المنظّر في حقل نظرية التلقي (ياوس) من خلال اهتمامه بتاريخ الأدب حيث بدأ عمله بنقد الاتجاهات الشائعة لدراسة تاريخ الأدب و التماس البدائل

[9] - the free :klumpper، the effects of mass communication glenois- 1.press، 1960 p: 129

[10] - لمزيد من المعلومات، ينظر:د، عبد الحليم محمد السيد، علم النفس الاجتماعي والإعلامي، الدمام ، دار الإصلاح 1979م ،ص:27.

لها؛ فانتقد المنهج الوضعي، و انتقد الاتجاه إلى دراسة ما عرف باسم تاريخ الأفكار، وانتقد مفهوم الانعكاس عند الماركسيين، كما انتقص منهج الشكلانيين لتعلّقهم بجماليات الفن للفن، و يرى أنّ المنهج الجديد الملائم لدراسة تاريخ الأدب هو الذي يجمع بين الماركسية و الشكلانية، و خرج من هذه الثنائية إلى عيّنة مصطلحية سمّاها " جماليات التلقي" حيث يتحوّل الاهتمام في دراسة الأدب من التركيز على منشئ العمل الفني،و على عملية إنشائه إلى التركيز على القارئ أو المستهلك وتاريخ الأدب إنما يتشكّل من خلال ذلك الجدل القائم بين المؤلّف والجمهور.

وهي دعوى خادعة كانت إفرازا واضحا لخلاصة المذاهب الفكرية التي لا صلة لها بالأدب و بمقتضاها يكون الأديب أو الكاتب إنسانيا عالميا في أدبه إذا انفصل عن حتميات البيئة و مسلّماتها، فربّما كانت الماسونية أسبق في الدعوة إلى النزعة الإنسانية بهذا المفهوم، و كانت أكثر توقّحا في الإعلان عنها بالعبارة المشهورة : " اخلع عقيدتك على الباب كما تخلع نعليك" فلكي تكون ما سوي المذهب أو إنسانيا في أدبك فاخلع عقيدتك، و الفرق بينهما كما يقول أحد المفكرين هو في وقاحة التعبير الماسوني والبريق الخادع في المصطلح الأدبي، فربّما استهوى ببريقه الكثيرين من ذوي التطلّع المبهور إلى الفكر الغربي، وربّما استمال إليه نفرا ممن تعاملوا مع كلمة إنسانية بمفهومها الأخلاقي[11] .

وفي أثناء الحقبة التي انطلقت فيها نظرية التلقي برز من جانب أخر اتجاه فيه اهتمام متزايد من قبل علماء الاجتماع بموضوعات تتعلّق بالاتصال و قد أنهى كل من ياوس و كايزر أفكار النظرية بفقرات في الاتصال مما يؤكّد فكرة انشطار نظرية التلقي إلى فعل قرائي و آخر تواصلي إذ يعدّ هذا الأخير نشاطا مشتركا بين القارئ و النصّ، يؤثّر كل منهما في الآخر.

و مهما يكن من أمر هذه النظرية فإنّ قصورا ما يلحقها من حيث تركيزها المتزايد على القارئ في حين أنّ العمل الفني و الأدبي نسيج متكامل، لا يمكن فيه إلغاء دور المؤلّف و ظروفه، أو عمله و ما يحمله من إيحاءات . لذلك فإنّ العمل الأدبي يتطلّب نظريّة تعالجه بشكل أكثر جديّة و منطقيّة تلائم الواقع أكثر، ولا تلغي أي عنصر من عناصر العمل الأدبي (المؤلّف، النصّ، القارئ)"[12]

يؤكّد الدرس النقدي الحديث فكرة مفادها أنّ الكثير الغالب في الاستعمال العربي هو استخدام مادّة التلقّي بمشتقاتها مضافة إلى النصّ على اختلاف أجناسه، وإنّ القرآن الكريم عوّل على هذه المادّة في أنساقها التعبيرية ولم يستخدم مادّة الاستقبال في هذا المجال ففي أجلّ مواطن التلقّي لأشرف النص، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾[13] ،ومنها أيضا قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾[14]

---

[11] -the free : klumpper،the effects of mass communication(glenois- 1.press،1960 p590

[12]- ينظر، عرض كتاب نظرية التلقي ، تأليف : روبرت هولب ،تر: عز الدين إسماعيل ، جدّة ، النادي الأدبي، 1426 – 1427.

[13] -النمل /6 .

[14] - البقرة / 37.

فدلالة الاستعمال القرآني لمادّة التلقي مع النصّ تنبّه إلى ما قد يكون لهذه المادّة من إيحاءات وإشارات إلى عملية التفاعل النفسي و الذّهني مع النصّ، حيث ترد لفظة التلقي مرادفة أحيانا لمعنى الفطنة والفهم، وهي مسألة لم تغب عن بعض المفسّرين في الإلماح إليها و خاصّة في مجال النصّ الخطابي[15]

يرى الدكتور طه عبد الرحمان أنّ الاجتهاد في العدول بالألفاظ عن معانيها الحقيقية و الأصلية يدخل فيما يُدعى بباب توسيع اللغة و قد رأى أنّ هذا التوسيع اللغوي لا يقي صاحبه السقوط في التشبيه الاضطراري، و لا يمكّنه من ستر هذه العورة إذ لا يزيد عمل الناظر المؤوّل عن نقل علاقات التشبيه من مستوى المعنى الحقيقي إلى مستوى المعنى المجازي فضلا عن كونه قد يوقعه في التكلف و الابتداع وتحريف الكلم عن مواضعه[16] .

فالرسول الكريم عندما ألقى خطبته في جمهور المتلقين لم يفصل هذا النص الخطابي عن متوقعات التواصل اليومي حيث أنتج خطابُهُ (صلى الله عليه وسلم) - بمحافظته على دلالاته السياقية الأصلية والمقامية المختلفة و المرتبطة بجمهور المتلقين- أفقا تواصليا يضمن استمرارية التأثير من خلال الوقوف على مقصدية الكلام إذ السياق يساعد على منح المتلقي أداة الفهم و التأويل من خلال رصد معايير معيّنة أوضح بعضها شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني و منها معيار الغموض؛ فمفهوم الغموض عند عبد القاهر الجرجاني يتمثّل في ضرورة اشتمال النصّ على فراغات تشكّل لدى القارئ غموضا ما، و إنّه من مقوّمات العمل الأدبي الناجح كما أنّه يضفي أهميّة على دور القارئ في محاولات الكشف و الفهم فيتحقق له الشعور بالمتعة؛ و ملء الأماكن الفارغة في حدّ ذاته إبداع و مهارة[17] .

أما خطاب الأصوليين فقد كان مدركا للنظريّة الاقتضائية، وبتأمّل قول الشاطبي الذي له دلالة عميقة في سياق الاقتضاء والإجمال. يقول: "فلا محيص للمتفهّم عن ردّ آخر الكلام على أوّله، وأوّله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلّف، فإن فرق النظر فيه فلا يتوصّل به إلى مراده، فلا يصحّ الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض أجزائه"[18] .

وهو يسير في اتجاه الربط بين الوحدات المعجمية وما يتّصل بمظاهر الحياة المختلفة والقاضية بهذا النوع من القراءة.

إنّ المعنى العميق الذي يستدعيه التأويل الذي قصده الله تعالى بقوله :لا يعلم تأويله إلا اللهو الراسخون في العلم لا يظهر في البنية السطحية للخطاب الديني ذلك لأن الخطاب لا يقدم المعنى تاما في مقطعه وإنما يكتفي

---

[15] - القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن المجلّد الأوّل، ص: 221 .

[16] - ينظر: طه عبد الرحمان ، العمل الديني و تجديد العقل المركز الثقافي العربي ط2 ،1997 ،الرباط ،المغرب.

[17] - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعارف للطباعة و النشر،بيروت لبنان،1982 .

[18] - أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تصحيح ،محمد عبد الله الدراز، دار المعرفة بيروت،ط2، ج3، ص: 413.

برسم خطاطات توجيهية تساعد القارئ على تفسيره في ضوء سابق النظم و لاحقه أو وفق حركة العودة من النهاية إلى البداية، و من الكل إلى الجزء[19]

وهذه السمة من أهمّ ما ميّز الملامح التخاطبية عند الأصوليين فالنظرة الشمولية للنصّ تتحقّق عندهم إذ يرون أنّ الخطاب الديني سواء أكان قرآنا كريما أو حديثا شريفا ينبغي أن يعامل على انّه نصٌّ واحد مرتبط أجزاؤه، و ينبغي ألا يُفسّر نصّ بمعزل عن بقية النصوص التي تتناول الموضوع مثل الحث على طاعة الوالدين و برّهما لا يمكن أن يُفسّر بمعزل عن حمل الطفل وولادته و إرضاعه و تربيته...

الفهم السليم للخطاب إذ لا يُقاس بفهم معنى الجمل فقط، بل بالإدراك السليم لمراد المتكلّم منه وهذا حرص منهم لبلوغ تفسير سليم لمراد الله و رسوله من القرآن و السنّة.

لا يمكن فهم النص دون استخدام القدرات العقلية و التخاطبية للمخاطب لأنّ اللغة مؤسسة على أمور مشتركة بين المتخاطبين مثل المعارف الإدراكية و الأعراف اللغوية.

فاللغة عند الأصوليين منظومة من الدلالات وليس هي منظومة من العلامات أي الدوال– كما هو حال البنيويين – ولهذا يتعيّن فيفهم الخطاب الديني استحضار جملة من الملامح التخاطبية التي تعنى بتحليل الخطاب، وهي المذكورة سابقا فضلا عن الاهتمام بالقرائن المصاحبة للنصّ ومدى إكسابها إياه دلالاته المصنّفة بين القطع والظنّ.

والحديث عن لغة الخطاب الدين يجرنا كخاتمة مشوّقة لهذا الموضوع إلى استعراض بعض خصائص الأسلوب في خطبة الوداع، ويأتي الأسلوب في المرتبة الثانية بعد البراهين عند أرسطو، لأنّ الأسلوب هو الذي يتكفّل بنقل الأفكار، ولا يكفي أن تكون الأدلّة مقنعة ما لم تقدّم بأسلوب مقنع، يجوّز مجموعة من العناصر التعبيرية و الفنية و الجمالية لأنّ عامّة الناس يتأثّرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهو في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجّة، فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقول، بل يجب أن يقوله كما ينبغي[20]

ولقد تزايد الاهتمام بمكوّن الأسلوب في الخطابة العربية إلى هيمنة الشعر الذي كان علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه.

5-الأسلوب الخطابي النبوي:

يجرّنا الحديث عن أسلوب الرسول صلى الله عليه و سلّم إلى الخوض في بلاغته و فصاحته إذ يقرّر ذلك لفظا (أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش)

[19]-Jauss: pour une herméneutiquelittéraire،Wolf gong Iser، traduit de l'allemand par Maurice Jacob،ed، Gallimard، 1988، p 364

[20] - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، دار الثقافة الدار البيضاء ،ط1/ 1986،ص :88،87 .

وخطبته في حجّة الوداع واحدة من المؤثرات التي يقف الدارس فيها على سمات أسلوبية تجمع بين الجانبين الفني والإقناعي و نورد منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

1 – الإيجاز حجاج و يتمثل في الأحكام التي حسم بها أمر كلّ خلاف، من ذلك: " إن دماءكم و أموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا" .

2 –التوكيد تمكين تكتسي الأمور المؤكّدة كلّها أهمية بالغة و تأكيدها يدخل في إطار الدعوة إلى التزامها و أكثر ما تمّ به التوكيد الأداة من ذلك: إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا.

إنّ دماءكم و أموالكم حرام عليكم

إنّ كلّ ربا موضوع.

إنّ لنسائكم عليكم حقا.

إني قد تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله و سنّتي.

لا ترجعنّ بعدي كفارا.

3 – التكرار ترسيخ: تجمع الدراسات الحجاجية على الدور الذي يقوم به التكرار في ترسيخ المعاني في الخطابة و قد أكثر منه الرسول صلى الله عليه و سلّم في النص الخطابي باستخدام اسم الإشارة " هذا " ليدلل به على الزمكانية .

النداء تنبيه: يعدّ النداء توجيها وقد استهلها به " أيها الناس" ليحث المخاطبين على الإنصات قصد إيصال الخطاب فتعيه العقول وتقبل عليه القلوب.

أسلوب الأمر والنهي: وهما من وسائل الإقناع التي تلزم المخاطب على إتيان الفعل، أو الإعراض عنه " فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها".

عليكم رزقهن وكسوتهنّ.

لا يحلّ لامرئ مال أخيه.

لا ترجعنّ بعدي كفارا.

الاستفهام تفاعل: لا تخفى وظيفة السؤال المحورية في أي خطاب إذ يتولّد عنه مجموع الدلالات من التفاعل بين المتخاطبين" ألا هل بلّغت؟"[21]

الشرط حكمة: الشرط تركيب ينعقد بين طرفين يكون حصول الثاني فيه مشروطا بحصول الأوّل و قد شاع توظيفه في جنبات الخطبة دون حشو أو إطالة لأن الأمر ذو بال يستثير المخاطب للانتباه " من يهد الله فلا مضلّ له" و لا يعدم النص الصورة البلاغية لتقريب الفكرة و التأثير في السامعين من جهة، و تذوّق جماليتها و روعتها

[21] - ينظر: عبد الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، ط1، إربد الأردن،2012، ص:153-154

من جهة أخرى، و منها المجاز الخلاق و الاستعارة التي تعتبر في الخطبة محاجّة كما أنّ البديع تحسين و تكوين لأدائية جمالية عالية و يجمع البديع بين القيم اللفظية و الصوتية التي تنتظم في إعطاء جلال المعنى في الخطاب الحجاجي.

وأخيرا، لا يسعنا في هذا المقام إلا أن نذكر بعض سمات الخطاب الحجاجي التي تبدو كثيرة ومتنوعة لنقول:

إنّ الحجاج مبحث يمتح من حقول معرفية و إنسانية عدّة،تتراوح بين ما هو فلسفي و عقلي و لغوي و سياسي و اجتماعي.

الحجاج في الفكر الإسلامي يبتعد عن السفسطة و المغالطات.

إنّ الانفتاح على النظريات والتصورات الغربية يمكن أن يكون المنطلق الحقيقي للغوص في تراثنا البلاغي العربي، واستكناه ما فيه من مضامين وأفكار تنمّ عن عمق تفكير علمائنا وسبقهم المعرفي، مع مراعاة الخصوصية العربية الإسلامية.

قائمة المصادر و المراجع:

القرآن الكريم برواية ورش

1 –أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تصحيح، محمد عبد الله الدراز، دارالمعرفة بيروت، ط2

2 – ابن كثير، البداية والنهاية، تعبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر الجيزة، ط1 / 1997

3 - أرسطو، الخطابة الترجمة العربية القديمة، د.ت، تحقيق وتعليق عبد الرحمان بدوي مكتبة النهضة المصرية 1959

4 – البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولباب لسان العرب، ت: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط4 / 1997

5 – رولان بارت، البلاغة القديمة، ترجمة عمر أركان، إفريقيا الشرق 1994.

6 – روبرت هولب، نظرية التلقي، تر: عز الدين إسماعيل، جدّة، النادي الأدبي، 1426 – 1427

7-عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1982

8 – عبد الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، ط1، إربد الأردن، 2012

9 – عباسا رحيلة، مقدّمة الكتاب في التراث الإسلامي، وهاجس الابداع، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1، 2003

10 – عبدالحليم محمد السيد، علم النفس الاجتماعي والإعلامي، الدمام، دار الإصلاح 1979م

11 –طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل المركز الثقافي العربي، ط1997،2، الرباط المغرب

12 - القرطبي،الجامع لأحكام القرآن. المجلّد الأوّل

13 – محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، دارالثقافة الدار البيضاء، ط1/ 1986م

المراجع باللغة الأجنبية:

traduit de l’allemand par ،Wolf gong Iser،-Jauss : pour une herméneutique littéraire1 p 364. ،1988،Gallimard،ed،Maurice Jacob

glenois- 1.press the effects of mass communication،the free : klumpper2- 1960